السمكة تتذكر اللون الازرق

نزار قباني

لا استطيع ان افكر في « الآداب » تفكيراً محايداً ..
فهي ليست امراة من ورق كان لي معها ذات يوم علاقات ورقية ..

انها امراة الدم واللحم ، والليل والنهار ، والصحو والقيلولة ، والنبيذ والكتابة ، والفرح ، والحزن ، والتسكع تحت احتمالات المطر .. واحتمالات القصيدة ..

انها أول امراة علمتني كيف اكتب جيداً .. وكيف أغني جيداً ..

وليس من طبيعتي أن انسى النساء اللواتي علمنني فن الكتابة .. أو علمنني فن الحب ..

مع « الآداب » بدات المغامرة الاولى .. وتلعثم الكلمات الاولى .. وخجل القصائد الاولى ..

فاذا اصبحت مع الزمن « شيخ طريقة » في العشق .. وربما شيخ طريقة في الشعر .. فان «الآداب» لها الفضل في تعليمي الابجديتين .. فلقد دربتني كما تدرب الخيول على الصهيل .. وكما تدرب الاسماك على اقتحام قدرها الازرق ..

بعد خمس وعشرين سنة من الاقامة في جسد البحر ، تحاول السمكة أن تتذكر ...

البحر في الخمسينات والاربعينات ، لم يكن بحرا مفتوحا للملاحة كما هو بحر الشعراء اليوم ...

كان المرور في هذا البحر ممنوعاً على المراكب الصغيرة .. والمواهب الصغيرة .. والاسماك الصغيرة ..

لم يكن في بحر الاربعينات سوى الحيتان الشعرية الكبيرة .. وسوى القراصنة يسيطرون على منافذ البحر ، والموانىء ، ويمنعون اي سفينة غريبة أن تدخل او تخرج من مياههم الاقليمية ..

كان أكثر من « فرزدق » واحد يهددنا بالقتل .. وباغراق مراكبنا اذا هي اقتربت من مناطق الصيد التاريخية التي يسيطرون عليها ..

على سواحل هذا البحر ولدنا ...

تحت شمس عدوانية ، وصيف عدواني ، وشتاء اشد عدوانا ، ومجموعة من اسماك القرش كانت تتسلى بمزمزة لحمنا .. وقرقشة عظامنا ..

كان البحر في تلك الايام بحراً مغلقاً .. وكان « مشايخ » البحر يمنعون السباحة المختلطة .. ويمنعون

دخول النساء والاطفال ... ويفرضون على النازلين الى الماء أن يرتدوا العباءات .. والعمـــائم .. والسراويل الطويلة .. والقباقيب الخشبية ..

مشايخ البحر كانوا يعتبرون الانف عورة .. فما بالك بالنهد ...

بكلمة مختصرة كان البحر أملاكا خاصة يتوارثها اقطاعيو « البحر الطويل » .. ابا عن جد .. ويطوبونها في الدوائر العقارية لاولادهم واحفادهم ...

كان البحر لهم .. والموج لهم .. والافق لهم .. والمراكب ، والبحارة ، والموانىء ، تدخـــل في حدود مملكتهم ..

اليوم ، لا يعاني شعراء السبعينات اي مشكلة مع البحر .. أو مع الشعر ..

فالمسابح الشعبية متناثرة على طول الشواطىء ، والماء في متناول الجميـــع .. ومشايـــخ البحر قدموا استقالاتهم .. وانسحبوا ...

أما نحن فقد اخترعنا بحرنا .. واكتشفنا جزرنا .. وسافرنا بشكل سري الى كل المرافىء التي منعونا مـــن دخولها ..

كانت معركتنا من أجل اللـــون الازرق طويلة .. ومتوحشة .. الى أن انتصر اللون الازرق .. وانتصرنا ..

■

خلال معركتنا من أجـــل تكريس اللون الازرق .. كانت « الآداب » قيادة أركان الشعر الجديد ..

فيها كنا نعقد اجتماعاتنا السرية ، ونستلم التعليمات والاسلحة .. والدعـــوات الصالحات بالنصر .. « لان سهيل ادريس لا يدفع فلوسا للثـــوار .. ولا لغيـــر الثوار ... » .

ثم تزوج سهيـــل ادريس .. ففرطت الثورة .. وتفرق الثوار .. لأن عايدة مطرجي ، التي صارت فيما بعد عايدة ادريس ، لم تكن تسمح لسهيل بأن يخرج في الليل مع الثورة « باعتبارها اسما مؤنثا ... » .

بعد أن تخرج سهيل من المحكمـــة الشرعية زوجا شرعيا .. تحولت « الآداب » من رئاسة أركان .. الـــى « تكية » لا يسمح فيها بتقـــديم المشروب .. أو تدخين السجائر ..

وهكذا ترك ثوار « الآداب » بنادقهم لـــدى مدام ادريس .. وذهبوا الى الديار المقـــدسة لاداء فريضة الحج ...

حتى الشاعر الكبير يفتشنكو اضطرته عايدة ادريس لتأدية فريضة الحج .. حين دعته مرة الى تناول العشاء لديها ، وقدمت له كوب اناناس (سكر زيادة) .. وصحن تبولة (بقدونس زيادة) .. فاذا به يصرخ مـــن حلاوة الروح ، كرجل يقودونه الى ساحة الاعدام :

« .. يا جماعة .. انا الشاعر السوفياتي يفتشنكو .. فلماذا تعاملني مدام ادريس كخروف ؟؟ .. » .

وانقاذا للموقف ، ولعلاقاتنا الطيبـــة مع الاتحـاد السوفياتي ، اخذت يفتشنكو الى أحد بارات الروشة ، وبعد كأس الكونياك الاولى رجـــع يفتشنكو من حالته « الخروفية » الى حالته الشعرية ...

■

على الشعر الحديث أن يرفـع قبعته عاليا لسهيل ادريس . أقولها ، وانا أدرك أبعـــاد كلماتي .. وأتحمل مسؤولية هذا الكلام ..

ولا بد لي هنـــا من كشف سر صغير لا يعرفه الا القليلون . وهو انني كنت شريكا لسهيل في « دار الآداب للنشر » لمدة عامين (١٩٥٨ ــ ١٩٦٠) .

وكان رأس المال المبدئي الذي وضعناه للدار تعيسا لى درجة انه لا يكفي لاصدار اكثر من خمسة كتب ..

وبدأ الشعر ينهال علينا .. من شعراء كانوا في ذلك الوقت مغمورين ، وصاروا اليوم من المشاهير ..

وكنت أتشاور مع سهيل في شأن كـــل مجموعة شعرية تأتينا . وفي حين كنت أفضـــل التريث في نشر بعض المجموعات التي لم أكن أتوقع لها الانتشار ، خشية أن نقع في عجز مالي .. كان سهيل يصر عـــلى النشر ، بحجة ان هذا هو شعر المستقبل .. وان رسالتنا كمثقفين هي أن نكون مع هذا الشعر دون قيد أو شرط ..

وتركت بيروت في مهمـــة دبلوماسية الى الصين ، وتركت لسهيل أن يتصرف بالمجموعات الشعرية بالتي هي أحسن .. موفقا بين رسالتنا الشعريـــة ، وقدراتنـــا الماليـــة ..

وحين رجعت من الصين بعـــد عامين .. وجدت مأمور الحجز واقفا على باب « دار الآداب » وفي يـــده الكبريت والشمع الاحمر .. وأدركت فورا ان سهيلا نشر كل المجموعات الشعرية التي جاءتنا .. ونشر معها عظام ميزانيتنا ..

وبالطبع .. طالبني سهيل بدفـع عجز الميزانية . فدفعته اكراما لعيون الحداثة .. وشعر المستقبل ..

أما شعراء الحداثة الذين حملهم سهيل ادريس على كتفيه .. ونشر لهم مجموعاتهم الشعرية الاولـى « التي بقيت في مستودعات دار الآداب خمسة عشر عاما » فقد تركوه بخمس دقائق ، عندما عرض عليهم ناشر آخر أن يشتري لهـم سيارات مارسيدس Second Hand تشتغل على المازوت ...

■

أعترف انني « ورطت » سهيل ادريس بنشر أخطر قصيدتين في تاريخي الشعري :

١ ــ « خبز وحشيش وقمر » عام ١٩٥٤ .

٢ ــ « هوامش على دفتر النكسة » عام ١٩٦٧ .

عندما نشرت « الآداب » القصيدة الاولى ، سقط سقف البرلمان السوري فوق رأسي . وسقطت بقينة السنقوف فوق رأسه ..

أتذكر الآن انني جلست فوق الانقاض .. وغنيت .

كنت لا أشعر بالحروق ، والرضوض ، والجروح المفتوحة في رأسي .. وكان دمي يسيل فلا أعرف انه دمي ..

في تلك الايام من الخمسينات كنت مجنون شعر .. ولم أكن أحسب حسابا لاي شيء .. فالحساب ضد الشعر ..

غير انني أدركت ، وأنا امشي فوق الحجارة ، والزجاج المكسور والاعمدة المتساقطة ، ان الكتابة هي بعض الموت ، وان الشاعر الذي لا يموت فوق أوراقه ، لا يستطيع أن يولد في وجدان الآخرين ..

« خبز وحشيش وقمر » كانت أول اشتباك بالسلاح الابيض مع مؤسسات السحر .. والشعوذة .. والطب العربي . والخرافة ..

وعندما رأيت وفود المتزمتين والدراويش تتجمع على باب رئاسة الوزارة في دمشق مطالبة بشنقي .. وعندما كانت المسيرات تعبر شوارع العاصمة السورية مطالبة بحرقي .. وعندما كان وزير الخارجية السورية آنئذ يتعرض في المجلس النيابي السوري لاشرس حملة عليه من اليمين الديني بسبب قصيدتي .. كنت أتمشى في حديقة بيتي في لندن .. منتظرا برقية طردي من وزارة الخارجية السورية .

لكن البرقية لم تصل ..

وانما استدعاني سفيرنا آنئذ في لندن الاستاذ فائز الخوري ، وهو أديب ، وعالم ، ورجل قانون ، ومناضل من الرعيل الاول . وبعد أن قدم لي فنجان قهوة في مكتبه ، قال لي :

ــ لماذا أنت حزين ؟

قلت له : ــ أما جاءتك الاخبار من دمشق ؟ أما قرأت محاضر المجلس النيابي ؟ انهم يخونونني .. ويطالبون بشنقي ..

قال فائز الخوري :

ــ قرأت كل شيء .. وسمعت كل شيء .. ولكن هل أنت خائف من الشنق ؟

اسمع يا نزار .. لا أحد في التاريخ يستطيع أن يشنق قصيدة !! فالقصيدة رقبتها طويلة جدا ..

ثم بكل هدوء ، مدّ يده رحمه الله الى درج مكتبه ، واخرج دفتر شيكاته ، وقال :

ــ هل تأخذ خمسة آلاف جنيه استرليني ، وتسمح لي أن أضع اسمي تحت القصيدة ؟

اذهب يا ولدي الى بيتك ، ونم في فراشك مطمئنا .. وتذكر بيت المتنبي العظيم :

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

ــ القضية حلها المتنبي منذ ألف عام .. حين ادرك بحدسه الخارق ، وبصيرته النافذة ، ان القصيدة الحقيقية هي القصيدة ــ المشكلة ...

■

الورطة الشعرية الثانية كانت قصيدتي « هوامش على دفتر النكسة » والتي كتبتها بعد أيام من هزيمة عام ١٩٦٧ .

واذا كانت « خبز وحشيش وقمر » بقيت تتفاعل داخل أسوار دمشق .. فان « الهوامش » قد انفجرت على نطاق الوطن العربي كله ..

صادروا « الآداب » في بعض المدن العربية ، واحرقوها في مدن أخرى .. وشعرت انني « افتريت » على سهيل وأسأت الى عذريته وطهارته القومية .. واحسست برغبة طاغية في الاعتذار ..

ولكن سهيل ــ وهذه شهادة ثانية اسجلها له ــ رفض ان يسمع اعتذاري ، واخبرني انه يعتبر نفسه شريكا متساوي الحقوق والواجبات في القصيدة .. وان مصادرة « الآداب » واحراقها ، والتنكيل بها .. أصبحت تقليدا عربيا راسخا .. فالمجلة التي لا تصادر في العالم العربي هي المجلة التي لا تقول شيئا .. ولا ترى شيئا .. ولا تسمع شيئا .. ولا ترفع يدها احتجاجا على شيء ..

وهكذا كانت « الآداب » المختبر الذي جربت فيه متفجراتي .. وكان سهيل يراني أحمل صناديق الديناميت .. واضعها على مكتبه في شارع « الخندق الغميق » فيبتسم لها كأنها علبة شوكولاته ..

صحيح .. ان سهيل بعد زواجه صار يحسب حساب الديناميت ، وصار يخاف على اثاث غرفة النوم ، وعلى السجاد ، والثريات ، وعلى عايدة .. ولكنه كان يبذل جهد الانبياء حتى لا يظهر الخوف على وجهه ..

لذلك استمر على التعامل مع حاملي الديناميت من الشعراء .. ولا يزال يستقبلهم ، ويرحب بهم حتى كتابة هذه السطور ...

■

... وبعد .. وبعد .. ماذا تستطيع السمكة أن تتذكر ؟

كل ما أستطيع أن أقوله في يوبيل « الآداب » الفضي أن البحر الذي سبحنا فيه في الخمسينات كان بحرا خطيرا .. ومثيرا .. ومليئا بالمفاجآت ..

كان بحرا حقيقيا ...